عيد سيدة صيدنايا

Meine Laura! Nenne mir den Wirbel,
Der an Körper Körper mächtig reisst!
Nenne, meine Laura, mir den Zauber,
Der zum Geist gewaltig zwingt den Geist!
SCHILLER.

صيدنايا بلدة صغيرة بالقرب من دمشق، كل منازلها تقريباً أكواخ بالمعنى الصحيح. وليس فيها بناء كبير يستحق الذكر سوى ديرها المشهور وهو بناء على شيء من الفخامة؛ مبني على ذروة تل تشرف على جميع الجهات التي حول البلدة القائمة في السفح. وليس في كل تلك الجهات موقع أجمل من موقعه (إن احتلال الأديرة أجمل مواقع البلاد لأمر بديهي عندنا فالأديرة في بلادنا تقوم مقام قصور الأمراء والأشراف في البلدان الغربية). ويتألف دير صيدنايا من بناء صغير قديم جداً أضيفت أبنية جديدة إليه تدريجيا. والمعروف إن جزءاً هاماً منه أقامه بناؤون شوريون كانوا مشهورين بالهندسة والبناء.

ليست أكواخ صيدنايا على شيء من الرواء والرونق، فلا شجر ونبات يكتنفها، ولكن في السهل المنبسط عند أسفل التل بستان كبير فيه أغراس زيتون عديدة وأشجار جوز باسقة الأغصان ورفة الظلال يرويه ماء نبع غزير وتقوم فوق هضبة لا تبعد عن التل القائم عليه الدير، في أعلاها وسفحها، كروم عنب وتين قليلة، وفي سفح هذه الهضبة مغارة تسمى مغارة "أم بزاز" {ذات الأثداء} ويعتقد أهل تلك النواحي أنها مقدسة ويعدون الحج إليها من جملة الفرائض.

أما "أم بزاز" التي أطلق أسمها على هذه المغارة فهي قديسة قديمة هكذا يقولون- أو هي سيدة صيدنايا والقرويون يتناقلون منها حكايات غريبة تدل على قوتها العجائبية ويوقدون لها الشموع ويوفون نذورهم لها على مذبح محفور على جانب المغارة إلى يمين المدخل. ولا يزال هؤلاء القرويون البسطاء يستدلون على صحة حكايات القديسة وعجائبها بوجود مكان معين في قبة المغارة يرشح منه ماء- قطرة كل ثلاث دقائق. يجدون

في انتظام رشح الماء على الوصف المتقدم رمزاً لقوة أم بزاز السحرية. ومع أن تعليل رشح الماء سهل جداً لوجود الماء على الهضبة فان القرويون يرون رشحه من مكان معين سراً مختصاً بالسيدة أم بزاز، وهم يتبركون بقطرات الماء حتى أنهم وضعوا تحت المكان الذي ترشح منه حجراً يقعد عليه من أراد التبرك ويتقبل قطرة الماء على جبينه.

يؤم صيدنايا في عيد السيدة خلق كثير من أنحاء كثيرة من القطر السوري. من دمشق العاصمة، أقدم مدينة موجودة في العالم. ومن حلب وأنطاكية و الإسكندرونة وحمص الغنيات بآثارها التاريخية ومن جبيل أو بيلوس القديمة مدينة الإله ادونيس ومن بيروت عروس المتوسط مدينة عشتروت القديمة ومنارة العلم في الشرق الأدنى قديما وحديثا، ومن صيدا وصور المدينتين الخالدتين الأثر في تاريخ المدنية والعمران، ومن حيفا ويافا والقدس منار الجنوب، ومن قرى لبنان الجبل الجميل الفخم و بقية البلاد شمالاً و جنوباً وشرقاً وغرباً. فيجمع في العيد المذكور خلق كثير لا من المسيحيين فقط بل من المحمديين أيضاً لان عيد صيدنايا يتخذ صفة عيد شعبي لسكان تلك المنطقة، فيبتهج فيه الشعب على اختلاف نحله، الأمر الذي ينبهنا إلى الفائدة الاجتماعية الجليلة التي يجنيها الشعب السوري كله من جعل الأعياد الدينية المحمدية والمسيحية الكبرى أعيادا شعبية يوحد فيها السرور والابتهاج عواطف جميع السوريين ويجعلهم يشعرون بوحدتهم القومية والاجتماعية.

يبتدىء القوم يتقاطرون إلى صيدنايا قبل العيد بأيام ثم تفد جموعهم في اليوم السابق للعيد ويوم العيد الأول (مدة عيد صيد نايا ثلاثة أيام) وهم يستخدمون وسائل النقل العصرية كالسيارات والدراجات النارية بدلا من العربات والخيل والحمير وغيرها التي تستعمل قبلا حتى عهد قريب. وطريق صيدنايا سهلة غير أنه لا يزال قسم منها غير معبد فكلما مرة سيارة أثارت غباراً، ولكن القادمين قلما يبالون بالغبار فلا ينتصف نهار العيد الأول إلا وغرف الدير وكنيسته وساحاته الداخلية وسطوحه قد غصت بالجموع ولم يعد فيها متسع للجموع الأخرى التي لا تنقطع وفودها كل ذلك النهار، فيحدث هرج ومرج عظيمان تضطرب لهما البلدة الصغيرة. و بينما الجماهير في غدو ورواح إذ بالشبان يؤلفون فرق "العراضات" التي تتجول في كل مكان ويملأ هتافها كل تلك الناحية. أما أهل البلدة فبعضهم ينصرفون إلى إعداد بيوتهم لنزول القادمين الذين يضيق بهم الدير على رحبه، والبعض الآخرين يعدون المأكل من لحم مشوي وبيض مسلوق وخبز وجبن وزيتون، أو يجيئون بالعنب والتين وأنواع البزور إلى الدير ليبيعوها

للزائرين. ويدور في الدير رقص "الدبكة" فيؤلف الرجال حلقاتهم وتؤلف النساء حلقاتهن. ولا يخلو الأمر من جاهل أو أحمق لا يعرف آداب السلوك والمعاشرة أو هو يعرفها ولا يعرف أن يحافظ عليها فيكون سبباً في تشويه العيد على القوم وعلى نفسه.

وأهم ما يسترعي انتباه الزائر القادم إلى العيد لأول مرة من شؤون الخلق المزدحمين هناك ملابس القرويات وحللهن الخاصة بالأعياد. فللقرويات السوريات حلل زاهية الألوان، بديعة المنظر حتى إنه يحق لهن أن يباهين بها قرويات العالم في سلامة الذوق وجمال المظهر. وملابس قروياتنا إجمالاً جميلة ولها رونق الزى القومي بيد إن قرويات معلولا يتميزن بزي خاص هو من أجمل أزيائنا القروية القومية وبقية زي القرويات السوريات، القديم الأصلي.

قلت أنه لا يخلو الأمر في الحوادث الشعبية، مثل عيد سيدة صيدنايا من جاهل أو أحمق يعكر بسوء تصرفه صفوة الأفراح. والظاهر أن الجهال والحمقى لا يتركون فرصة تمر دون أن يغتنموها لإظهار جهلهم وحماقتهم، فأجتمع منهم في عيد سيدة صيدنايا سنة 1930عدد غير يسير، الا أن واحدا منهم أمتاز عنهم بجرأته واقدامه وجعل للحادث التالي أهمية روائية ما كان ليكتسبها لولا الأعمال المسرحية والأدوار التمثيلية التي أتاها.

كان بين القادمين إلى دير صيدنايا في عيد السنة المذكور شاب من لبنان ربعة إلى الطول، مرير القوى، مسمور الجسم، في قامته استقامة الرمح، ذو صدر يشبه بارتفاعه برجا حصينا، وهو مستوي الوقفة معتدل الخطوة ولعينه بريق تظهر فيه قوة روحه، وهيأته إجمالا تدل على إنه غير ميال كثيرا إلى الهزل، بيد إنه كان يحب مشاهدة الألعاب ويسر بها سرور الطفل، والناظر إليه يدرك لأول وهلة إنه ليس من الذين ذهبت أخلاقهم وفسدت طباعهم من شبان هذا العصر الذين لم يحصلوا حين نشأتهم على تربية عائلية اجتماعية صحيحة، ولا من الذين أنشبت مخالبهم بها المشارب القديمة الفاسدة التي لا تجر على من يتمسك بها في القرن الحاضر إلا الوبال. كانت نفسه بسيطة وكان في مقتبل العمر، واسمه إبراهيم – لا أريد أن أدعوه باسمه الحقيقي ولا أن أذكر أسم البلدة التي جاء منها لكيلا تتحول الحكاية إلى أمر شخصي وتفقد الواقعة الروائية المقصودة ومن المؤكد أن إبراهيم لم يأت إلى صيدنايا بفروض كنيسة لأنه كان يحب الله والطبيعة حبا خاليا من الرهبة التي تدعو إلى السجود وتقديم القرابين، ويهرب من الطقوس، ورغبته الوحيدة كانت أن يشترك في العيد ويرى مظاهر جديدة

من مظاهر قومه الشعبية، ذلك كان إعجابه بالمشاهد الكثيرة التي وقعت عليها عيناه المتقدتان شديدا، بل كان ابتهاج الطفل يبدو على وجهه كلما رأى حلل القرويات الزاهية.

لإبراهيم في بلدته سيرة بطولة مشهورة يعرفها كل الذين يهتمون بتناقل سيرة الأبطال وكان الشبان الذين يعرفونه ينظرون إليه نظرهم إلى مثال فخم لقوة الجسد والروح، حتى إنه إذا وجد بينهم وخطر لهم إن يدخلوا على الأسود في عرائها، أو أن يتصدوا لمحاربة جيش مسلح ولا سلاح لهم إلا العصى، أقدموا موقنين بالفوز. وفيما سوى ذلك كان هذا الشاب مشهورا بغرابة الأطوار، من ذلك إنه كان يكره الظهور ويأنف من عرض قوته البدنية العظيمة على الناس فخالف بذلك عادة الفتيان الذين لا يكادون يطمئنون إلى شيء من القوة في عضلاتهم حتى يعمدوا إلى إظهاره والمفاخرة به، وكان يبتعد عن مخالطة الناس خصوصا الجنس اللطيف فكان يفارق كل مجلس يضم سيدات أو آنسات، ويعرض عن الحسان اللواتي يخفين في صدورهن شوقا لاعجا للاجتماع به، مثيرا كوامن غيظهن بعدم مبالاته وعبثه حتى أخذن يتناقلن عنه حكايات مختلفة، القصد منها الحط من شأنه وشاركهن في غيظهن كل الشبان الذين كانوا يحسدونه لعلوه عن مستواهم في القوة البدنية وقوة الإرادة فجعلوه يذيعون عنه حكايات قصدوا منها أن يطعنوه في رجولته، أما هو فكان يترفع عنهم ويمر بأقاصيصهم مرور الكرام، ومع ذلك لم ير بد من تأديب واحد أو أثنين بلغت بهما الوقاحة حدا حملهم على الاقتناع بما كانوا يختلقونه عنه.

مما يجب ألا يغفل ذكره هنا أمر له علاقة كبيرة بنهاية هذه القصة، وهو أن إبراهيم سئل مرة كيف يجب أن تكون امرأته فيما لو أراد أن يتزوج. وكان السائل صديقا حميما لإبراهيم فأجابه إنه يرى انتخاب امرأة صحيحة الجسم قوية البنية، مليئة، مكتنزة، موردة الخدين، وافرة العقل، حسنة المدارك، تعرف كيف تدير شؤون بيتها ويكون من صحتها صحة لأولادها.

دخل إبراهيم الدير وأخذ يتجول في باحاته وأروقته ويتنقل على سطوحه. ثم إنه أشرف على أحد السطوح ليراقب ما يجري في الباحة الكبيرة التي أمامه. فوقعت عينه على حلقة "دبكة" في وسطها، مؤلفة من فتيات قرويات والجمع يحدق بها من جميع النواحي حتى صارت حلقة ضمن حلقات. وبينما هو يتمتع بمرأى حلقة الرقص إذ بإحدى الراقصات تنفرد عن رفيقاتها وتدخل وسط الحلقة وتأخذ في رقص فردي مبتكر بينما

رفيقاتها يتابعن الدبكة حولها. وكانت الفتاة معتدلة القد هيفاء القوام تلعاء الجيد أسيلة الخد ذلفاء الأنف، حوراء العينين، وطفاء الأهداب. وكانت لابسة حلة أرجوانية، شادة وسطها بنطاق مذهب، معلقة في أذنيها الصغيرتين قرطين كبيرين تتدلى منهما قطع نقود ذهبية صغيرة، لافة شعرها بمنديل تتعلق به قطع نقود فضة ومن فوقه وشاح أبيض مسدل على ظهرها. لم يكن إبراهيم قد رأى من قبل راقصة مثل هذه ولا فتاة شبيهة بها، فأعجب بمرآها أي أعجاب وأخذ يتأمل قدها الجميل وهيأتها اللطيفة ويراقبها. في خطوها وتنقلها وسرعة دورانها ورشاقتها في انحنائها وتمايلها، صفات تتجلى فيها قوة عاطفتها وشدة إحساسها. وكانت بين حين وآخر ترفع رأسها بشمم واعتزاز وتلقي على ما حولها نظرات فيها كل معاني عدم المبالاة.

وقف صاحبنا ينظر إلى هذه الراقصة برغبة عظيمة وارتياح تام ولأول مرة في حياته شعر بخفقان في قلبه وأحس حرارة شديدة تغشي سطح بدنه دون أن ينتبه إلى هذه الحالة الجديدة التي صار إليها. ولو رآه على هذه الحالة من يعرفه جيدا لعجب كثيرا من استئنافه بمرأى الفتيات وإعجابه بمظهر الراقصة الحسناء وهو الذي كان يهرب من النساء ومن كل مجتمع نسائي هربا، ولا يرغب في أن يرى منهن الا من كانت ممتلئة البدن.

لاشك في انه لو انتبه إبراهيم إلى نفسه في هذه الآونة ورأى الحالة التي هو عليها لكان أخلى مكانه بغاية السرعة وهرب جريا على عادته وهزأ من نفسه كيف أطاق أن يطيل النظر إلى حلقة من النساء ويبتهج بمرأى فتاة غريبة جدا عن نوع الجمال الذي كان يملأ تصوراته، ولكنه لم ينتبه قط لأن الراقصة كانت آية من الذوق والإبداع ولها مدلولات نفسية تثير كوامن الشعور. لم يكن هو الوحيد الذي ترك كل شيء آخر وأقبل لمشاهدة الراقصة الأنيقة. بل أن الباحة التي كانت ترقص فيها كانت كلها أعناقا متطاولة نحوها.

أخيرا أتمت الراقصة رقصها الفردي فأقبلت رفيقاتها يهنئنها وسط عاصفة من التصفيق توردت لها وجنتاها. أما إبراهيم فبقي في مكانه لا يصفق ولا يهتف ولكن عينيه كانتا تراقبان ما يجري في الأسفل باضطراب وقلق. فإن فريقا من الجمهور المزدحم في الباحة مؤلفا من أولئك البلهاء الذين يظنون الفطنة في انتهاز مثل هذه الفرصة للتلذذ بأتفه الملذات وأحقرها كملامسة أجساد الفتيات والنظر إلى وجوههن عن كثب بوقاحة وصلابة جبين تظهر فيهما الغريزة الحيوانية بوضوح تام، أطبق على الراقصات وضرب حولهن نطاقا ضيقا أصبح اختراقه من الصعب عليهن

إذا لم يكن من المستحيل، فتضايقن جدا وعبثا نظرن إلى من حولهن نظرات ملؤها التضرع . وكان بين الجمع شاب يشق طريقه نحو الفتيات وعليه دلائل الجذل الممزوج بالخبث. فاغتاظ إبراهيم جدا من هذا الحال خصوصا من الشاب الذي كان يتقدم نحو الفتيات وليس في هيئته ما يدل على إنه يقصد الإفراج عنهن ولم يتمالك أن أنحدر إلى الساحة وطلب من جمهور الرجال الواقفين هناك أن يفسحوا له مجالا للتقدم ولما رأى إنهم قابلوا طلبه بعدم الاكتراث ابتدأ بجذب بعضهم ويدفع آخرين بقوته الملكارتية حتى شق لنفسه بين الجمع طريقا عريضة كافية لمرور شخص واحد دون انزعاج. فلما بلغ المكان الذي انحصرت فيه الفتيات كان الشاب الذي انسل بين الجمع قدامه وقد سبقه وجعل يحادث الراقصة الحسناء بتودد. أما هي فامتعضت من وجوده وازدادت اضطرابا لما رأت مضايقة القوم لها ولرفيقاتها، فلما رأت إبراهيم مقبلا والرجال تتطاير من يديه ذات اليمين وذات اليسار. دهشت دهشا عظيما ثم إنها لم تلبث أن أدركت إنه آت للإفراج عنها وعن رفيقاتها فأكبرت نخوته وشجاعته.

فقدم إبراهيم إلى هذه الفتاة ووقف لحظة يبادلها النظر وهو لا يدري ماذا يفعل، وكأن الفتاة لم تكن تدري ماذا تفعل، ثم خاطبها قائلا: "أيتها الآنسة، إن الطريق مفتوحة لك ولرفيقاتك"، فأجابته بصوت خريد، وقد تضرج خداها: "إني أشكرك من كل قلبي فإنك قد أنقذتنا وحدك"، وعلى الأثر غضت نظرها وانطلقت في الممر الذي افتتحه إبراهيم وسارت رفيقاتها في أثرها.

أما إبراهيم فأنه بقي في مكانه مبهوتا حائرا وكان قد همّ أولا بالإجابة على شكر الفتاة ولكن عواطفه كانت أقوى من آداب المجاملات فلم يسعده النطق ولم يعد يعرف كيف يتصرف لأن هذا اللقاء ربك رأيه تربيك.

بيد أن حيرة إبراهيم لم تستمر طويلا، لأن الشاب الآخر الذي ظل لحظة واقفا يحرق الارّم على إبراهيم لقطعه عليه ما كان آخذا فيه، تحرك بغتة من موقفه وهم باللحاق بالفتاة التي لم تكن قد توارت عن النظر، فنبه تحركه إبراهيم فمد اليه يده القوية بسرعة البرق وجذبه إلى الوراء صاح به بغضب :"إذا كنت لا تترك مطاردة الفتيات فقد تقع في ورطة يعسر عليك الخروج منها". وكانت صيحته قوية إلى حد أن الفتاة سمعتها فالتفتت إلى ورائها ورأته قابضا على عضد الشاب فكرت عائدة ملهوفة وخاطبته بتضرع قائلة: "سامح هذا الشاب واخل سبيله لأنه لا يدري ما يفعل" فتركه إبراهيم وقد دهش لتصرف الفتاة التي لم تكد ترى يده رجعت حتى أخذت بساعد الشاب وحاولت أن تجره وهي تقول "تعال، عجل" ولكن هذا بدلا من أن يتبعها نظر إلى إبراهيم شزرا وقال له: "سنلتقي مرة أخرى في هذا المساء وحينئذ اريك كيف تكون نتيجة تعرضك لما لا يعنيك" وافلت على

الأثر من الفتاة فسار منفردا. وكان كلما بعد عن المكان ازداد رأسه التهابا وقلبه حقدا.

حينئذ نكست الفتاة رأسها ورجعت مسرعة من حيث أتت كمن يريد الهرب من شيء يخشاه. وبقي إبراهيم في مكانه وهو ما كاد يستفيق من ذهول حتى عاجله ذهول أشد منه، ولكن لغط الناس حوله نبهه فرفع رأسه ونظر إلى الجمع بعينين ضاقت الدنيا بهما ثم سدد خطاه نحو الممر المؤدي إلى الخارج وسار والناس تتراجع من طريقه كما من أمام جبار أو أمير.

لم يكن قد بقي لغيوب الشمس سوى ساعة أو أكثر قليلا. ولم يكن إبراهيم يدري لمَ أراد الخروج من الدير ولا إلى أين يتوجه ولكنه لما صار في الخارج استرسل إلى إحساسه وهام على وجهه بين الهضاب التي بجانب الدير ورأسه مثقل بالألغاز والأحاجي وكل ما مر به كان يبدو له معميات من تكون تلك القروية الحسناء؟ ومن يكون ذلك الشاب وما شأنه معها؟ ولكن لماذا يقلقني ذلك وما يعنيني أنا من أمر الاثنين ولماذا يجب أن أفكر دائما بتلك الفتاة؟ وكان كلما حاول أن يضعف من شأن هذه المسائل ازداد قلقه لها وشعر إنها مسيطرة على شعوره حتى أيقن أنه لا يمكنه أن ينساها مهما بدت له عادية أو تافهة، فحاول أن يسري همه بالانتباه إلى طبيعة الأرض التي يمر بها، وإذا به يرى نفسه تجاه كهف محفور في منحدر الهضبة، وشاهد ناسا واقفين عند مدخله واخرين داخله. وأقترب من صبي كان قد أتى من جهة الكهف وسأله عن شأن الناس المجتمعين هناك فأجابه الصبي: "هذه مغارة القديسة أم بزاز، والناس يأتون لزيارتها".

ولم يكد إبراهيم يسمع ذلك حتى شعر برغبة شديدة بدخول الكهف والوقوف على ما فيه. ولم يتردد لحظه واحدة في تحقيق هذه الرغبة. فلما صار في داخله لم يجد فيه شيئا غير عادي عن الكهوف التي تكثر في مناطق البلاد الجبلية سوى المذبح الصغير في جانبه الأيمن. وكان في الكهف بعض النساء ينتظرن فتاة قعدت تحت مرشح الماء تتوقع حلول بركة القديسة عليها وشاهد إبراهيم قطرة الماء تسقط على جبينها وكيف أن النساء ابتهجن لذلك. فاكتفى بما شاهد واقتلع من سقف الكهف حجرين صغيرين للذكرى وتحول إلى المخرج ولكن امرأة كانت واقفة هناك استوقفته قائلة "تبرك أولا ثم أخرج لأنه لا يحسن أن يزور إنسان هذا المكان ويعود بدون بركة القديسة"، ولكن إبراهيم انحاز عنها وقفز إلى الخارج وعاد في طريق الدير.

وفيما هو في الطريق عاد يفكر: إن ذلك الشاب قال لي إننا سنلتقي في هذا المساء فكيف يعلم إننا سنلتقي ؟ قد يخطر لي أن أغادر صيدنايا الآن ومن ثم لا نعود نلتقي. ولكن لم ابرح هذه البلدة ؟ أيوجد ما يضطرني إلى

ذلك؟ ثم ماذا سيحدث في هذه العشية؟ اهو شيء جديد، غريب يعرض لي لأول مرة ؟- أف لهذه الوسواس. وهل يمكن أن أكون قد أمسيت عرضة لها؟

لما بلغ إبراهيم الدير كانت الشمس قد توارت منذ بضع دقائق وأخذ الليل يرخي سدوله، فأنه كان ليلا داجيا.

وكانت ساحات الدير الداخلية قد انيرت بقناديل البترول والجموع لا تزال على حالها من الازدحام والهرج والمرج، الا القروية الحسناء فإنها لم تعد تظهر لهم . فسار إبراهيم في ذلك المحيط الضخم على غير هدى ودخل أحد الأروقة وكانت قاعة الطعام في أخره فرأته إحدى الراهبات ودعته إلى العشاء ولكنه لم يكن يشعر بميل للأكل فشكر وأعتذر وتحول إلى ممر قريب قامت في وسطه غرفة صغيرة كان بابها مفتوحا قليلا، وفيما هو يجتاز هذا الباب سمع من داخل الغرفة صوتا رخيما أدرك حالا إنه صوت الراقصة القروية فتوقف عن غير عمد وطرقت مسامعه الكلمات الآتية:"لا تكن عنيدا يا جرجس، فيكفيني أن أكون تدخلت من أجلك أصيل هذا النهار. ولا تنسى أن أمك مريضة وإنه يجب عليك أن لا تجعلني سببا للشر. و أنت قد توعدت شابا كريم الأخلاق دافع عنا وأخرجنا من المأزق الحرج الذي كنا فيه، وهو شاب قوي يُخشى منه ولا يُخشى عليه فلا تتعرض له".

فأجابها المخاطب: "إذا كان الشاب قويا فإن ضربة سيفي لا ترد وسترين صدق قولي".

فأسرع إبراهيم بالابتعاد، موبخا نفسه على وقوفه عند الباب كمن يتعمد استراق السمع، وصعد إلى أحد السطوح وقد خطر له أن يغادر صيدنايا في الحال، ولكنه عاد ففكر: "لماذا يجب أن أغادر صيدنايا. وهل من عادتي أن أهرب؟ ولكن وهذا القلق المستولي علي ولم أعهد في نفسي شيئا من ذلك من قبل؟" وبعد أن هدأ من روعه قال في سره "من تكون هذه الفتاة؟ إنها تقول اني أخشى ولا يخشى علي". عند هذا الخاطر أبتسم ولم يشأ أن يطيل التفكير فأخذ يجول وينتقل من سطح إلى ساحة ومن ساحة إلى سطح لعله يزيل ما به من حيرة.

وبينما هو في جولاته إذا بفتى لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره جميل الطلعة، حسن الهندام، معتدل القامة، شديد الأسر قبض على ساعده في إحدى الساحات وصاح به: "ما الذي جاء بك إلى هنا يا إبراهيم؟ إنها والله لصدفة تستحق التسجيل"، فالتفت إبراهيم ليرى من ذا الذي امسكه ومرت عليه بضع ثوان قبل أن يتمكن من استرداد أفكاره الشاردة، ثم ظهرت عليه علائم البشر وقال: "آه. هذا أنت، يا رشيد، مرحبا، مرحبا. لقد جئت أنا لحضور العيد وأنت ما الذي جاء بك؟".

- "وأنا أيضا جئت لحضور العيد ولكني جئت على ميعاد وأرجو أن يكون مواعدي قد حضر. وأني أشكر التقادير التي جمعتني بك الآن لتكون شاهدا على ما سيجري".
- "ماذا سيجري؟" وتسارعت الخواطر في دماغ إبراهيم.
- "سيجري خطاب السيف، مبارزة حكيمة أنا أحد المنازلين فيها. ويسرني كثيرا وجودك هنا، فقد لا يكون هنا أحد غيرك صديقا وخبيرا بهذه اللعبة الخطرة.".
- "من خصمك؟"
- "أرجو أن التقي به قريبا فهل لك أن تصبحني ؟"
- "بطيبة خاطر، ولكن ما هذا الميعاد الغريب للمبارزة ؟"
- "أن لذلك حكاية لا مجال لقصها عليك الآن، وقد تأتي فرصة أخرى لذلك. هلم نصعد إلى السطح".

فصعد الاثنان إلى احد السطوح وجعلا يتسامران وكان رشيد لا يغفل عن مراقبة الساحة التي تحت، وبغتة توقف وأمسك رفيقه وهزه قائلا: "أنظر إلى ذلك الشاب يخوض عباب الجمع هناك، هذا هو خصمي، أنه ولا شك يبحث عني فهلم بنا نلاقيه."

فنظر إبراهيم ورأى شابا ما عتم أن عرف أنه نفس الشاب الذي توعده في النهار. فبهت لهذه الصدفة المفاجئة وتبع رفيقه وهو يتمتم لنفسه: "أنه من لاعبي الحكم[1] ويبارز في الليل على ميعاد، وأمه مريضة ولكنه لا يعبأ بها، ويوجد فتاة تتدخلمن أجله وتنصحع من أجل أمه ومع ذلك يظل على عناده".

عندما لاقى رشيد خصمه أبتدره قائلا: "لقد كدت أتأخر عن المجيء لأسباب، وأرجو أن لا يكون الميعاد قد فات".

فأجابه ذاك وهو ينظر إلى إبراهيم متعجبا من وجوده: "لما يفت الوقت، بل لا يزال أمامنا نحو نصف ساعة يمكننا أثنائها أن ندرس المكان ونعين الحكم".

فقال رشيد: "أسمح لي أن أقدم صديقي إبراهيم إليك فهو غير مشهور في عالم الحكم ولكنه أبرع من انتشى سيفا" والتفت إلى إبراهيم وقال له: "أقدم إليك السيد جرجس أحد البارعين بضرب السيف".

فانحنى إبراهيم وانحنى الشاب ولكنهما لم يتصافحا. وسار الثلاثة يبحثون عن مكان موافق للمبارزة إلى أن اهتدوا إلى باحة صغيرة منعزلة واقعة في القسم الخلفي من الدير، معلق في وسطها قنديل غازي نوره كاف لإنارة المكان ثم إن جرجس قدم رجلا عارفا بأبواب الحكم ورشحه للقضاء بينه وبين خصمه فقبله رشيد وزاد جرجس أن يكون لإبراهيم الحق في

[1] لعبة السيف السورية القومية

مراقبة المبارزة بما أنه ممن يحسنون الحكم. بعد ذلك افترق الخصمان فذهب جرجس مع الرجل الذي رشحه هو ليكون حكما وأنصرف رشيد برفقة إبراهيم. فقال إبراهيم: "إنها المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها مثل هذه الألغاز".

فأجابه رشيد: "سترى أن للألغاز لذتها. بل أنت تعلم ذلك لأن حياتك كلها الغاز بالغاز. ألم تقم مرات كثيرة بأعمال غريبة كان يعدها الناس ألغازا ولكنك أنت كنت تعدها شيئا طبيعيا، بديهيا؟ إني أقتبس من نورك وأقتفي خطاك وأعلم أن ألغازي ليست شيئا مذكورا بالنسبة إلى ألغازك وأرى أن ألغاز حياتك المقبلة ستكون أعظم من ألغاز حياتك الماضية".

لم يجب إبراهيم على كلام صديقه، اما لأنه وجده مصيبا أو لسبب أخر لم يرد إظهاره. وصمت رشيد أيضا لأنه كان عليه أن يستعد للمبارزة ودخل الاثنان إحدى الغرف حيث نزع رشيد ثيابه المدنية ولبس بدلا منها ثوبا بسيطا تسهل معه حركة جسمه واحتذى نعلا خفيفة، ثم أخرج من حقيبة مستطيلة كان يحملها معه سيفا وترسا يبدو حالا من مظهرهما إنهما خصوصيان فجرد السيف وجعل يمتحن حده وأداره في الهواء عدة مرات لتمرين ذراعه وأعاده على الأثر إلى غمده وتأبطه وحمل الترس والتفت إلى صديقه وقال:

"ها أنا حاضر للقتال فكيف تراني؟"

- "أراك نشيطا وفي حالة حسنة، ولكنك لم تقل لي إلى أي حد من الخطر ستبلغ المبارزة }.

- "إلى الحد الأخير".

- "وهل هذا التصميم نهائي لا رجوع عنه؟".

- "إنه نهائي إلى النهاية". ونظر إلى ساعته وقال: "هيا بنا فقد حان الميعاد". وخرج من الغرفة وتبعه إبراهيم صامتا.

ولما بلغا الساحة المعينة وجدا أنهما الأولان، للقدوم ولم يكن هنالك جمع غفير، فجعلا يتمشيان ذهابا وإيابا ويتكلمان عن أشياء تافهة وأمور لا محل لها، قتلا للوقت، إلى أن قدم الاثنان الآخران فاستقبلاهما وتفاهموا على بعض النقط المتعلقة بالأصول المتبعة في الجلاد بالسيف، ثم اتخذ كل من الخصمين مركزه مقابل الأخر واتخذ الحكم موقفه ووقف إبراهيم في طرف الساحة عند متوسطها وأعطى الحكم الإشارة فتناول المتنازلان سيفيهما وترسيهما وشرعا يتجولان من بعيد تمهيدا للالتحام .

ما كاد سيفا المتبارزين يلمعان على ضوء القنديل ويقبقبان على الترسين حتى أقبل الجمع وضربوا نطاقا عند مدار الساحة وشعر القوم على السطح بما يجري فأشرفوا من كل مكان مناسب. واشرأبت الأعناق وأمسى

المتضاربين قبلت الأنظار وكان الناس يظنون أنهما يلعبان السيف من قبيل اللهو.

تجاول الخصمان حتى سبر كل منهما غور الأخر ثم تقاربا والتحما وسمع لسيفهما طرق متكرر على الترسين ولكن لم ينل احدهما من الأخر منالاً فأشار الحكم بالتراجع فتراجعا. ثم عادا إلى التجالد بين كر وفر. وفي هذه الأثناء أصاب سيف جرجس صدر رشيد فجرحه. ولاحظ إبراهيم أن جرجس يستعمل في التسايف ضروبا لا يستعملها من عنده شيء من كرامة وآداب السيف. بعكس رشيد الذي كان نزيها في كل أبوابه. يجيب على ضربات الغش المسددة نحوه بضربات صريحة، فصبر على هذه الضربة الأولى ولكن لم يطل الوقت حتى عاد جرجس فجرح رشيدا في كتفه جرحا بالغا مستعملا نفس الضروب المعيبة لرجال السيف، فلم يطق إبراهيم صبرا على ذلك، خصوصا بعد أن رأى الحكم لا يتدخل وصديقه أشرف على حالة حرجة فقفز إلى وسط الساحة وحال بين الخصمين في الوقت المناسب لمع ضربة أخرى قوية كان جرجس يهيئا وصاح بهذا: "ليس هكذا يستعمل أهل السيف سيوفهم".

فاستاء جرجس جدا من حؤول إبراهيم بينه وبين خصمه وأجابه: " إذا كنت تدعي معرفة استعمال السيف أحسن مني فجرب نفسك!"

فأجابه إبراهيم وقد نسي أفكاره السابقة: "حذار يا هذا فأنك تعرض نفسك للإهانة"

- "إن من يعرض نفسه للإهانة هو أنت فكن على حذر"، قال جرجس هذا وهز حسامه وتراجع بضع خطوات إلى الوراء داعيا مخاطبه إلى المبارزة فثار ثائر إبراهيم الذي لم يتفق له فيما مضى أن يصبر على وقاحة وقح إلى هذا الحد، فأخذ رشيدا إلى جانب وهو في حالة خطر شديد وأخذ حسامه منه وأقبل على جرجس بغير ترس وعيناه تقدحان شررا من شدة الغضب. ثم أنه لاعب سيفه مرسلا منه بريقا كوميض البرق وحمل على خصمه والتحم معه توا فدافع هذا عن نفسه بالترس وحاول أن يرد الضربة ضربة ولكن سرعة دوران سيف إبراهيم عرقلت سيفه وأبطلت أبواب خداعه. وافترق الخصمان وقد أصيب جرجس في كتفه الأيسر وجرح جرحا غير بالغ وفيما إبراهيم يجول ليعيد الكرة على منازله إذ حانت منه التفاته إلى جانب ووقع نظره على الراقصة التي شغلت قلبه وسلبت لبه وكانت تراقب ما يجري بوجه يدل على مبلغ جزعها. والتحم المتضاربان مرة أخرى وسمع لسيفهما صليل وقبقبة وحانت لإبراهيم فرصة يدرك كل من يعرفه إنها قاضية له، ولكنه بدلا من أن يهوي بسيفه على منكشف منازله تباطأ كمن يشعر بارتخاء ساعده ولكن جرجس قد سدد ضربة شديدة إلى عنقه فمال عنها واعترضها بكتفه فجرحته جرحا بالغا

وقبل أن يتمكن الاثنان من العودة إلى الالتحام ركضت الراقصة ووقفت بينهما وأسرع الناس وكفوهما عن القتال. وأقبلت إحدى راهبات الدير لترى ما الخبر فلما رأت إبراهيم و رشيدا والدم يسيل منهما قادتهما إلى غرفة وأحضرت راهبتين أخريين ساعدتاها على ضمد جراحهما. ورأت ما حل بإبراهيم بعض النساء اللواتي التقين به في مغارة "أم بزاز" وحالا سرى بين القوم الاعتقاد بأن القديسة أم بزاز قد اقتصت لنفسها من هذا المتكبر الذي لم يشأ أن يطلب بركتها.

واتصل الخبر حالا برجال الدرك المرسلين خصيصا لحفظ الأمن أثناء العيد فأسرع اثنان منهم للوقوف على جلية الأمر، وكانا أرمينيين لا يحسنان التكلم بالعربية. فأقبلا على الجريحين المضطجعين في سريرين قدمتهما لهما راهبات الدير واقترب احدهما من إبراهيم، الذي جعل ينظر إليهما باستياء شديد وسأله: "مين بيضرب أنت ؟" وتقدم الآخر إلى رشيد وسأله: "مين بيضربك أنت؟" فنسي إبراهيم جرحه وأستغرق في الضحك. ولم يتمالك رشيد عن متابعته، ولكن لما أعاد رجال الدرك سؤاليهما نفذ صبر إبراهيم فصاح بهما بصوت دوت له الغرفة: "أخرجا حالا من هنا! وإلا..." وحاول النهوض. ولكن ما كاد الدر كيان يسمعان صيحته الشديدة حتى أسرعا بالخروج وعادا إلى المركز حيث قدما إلى الرئيس السوري تقريرا لم يفهم منه شيئا ولكنه اظهر اكتفائه به.

بعيد ذلك جاءت رئيسة الدير فتفقدت حالهما وأوصت بالعناية بهما وقبل أن تترك الغرفة ابتهلت إلى الله أن يرد عنهما الخطر.

أخيرا خلت غرفة الجريحين من الناس فالتفت كل منهما إلى الآخر وهو يبتسم وقال رشيد: "منذ هنيهة قلت لي يا إبراهيم إن ما قد قمت به لغز. وأنا نفسي كنت أعتقد إنه أعظم لغز ولكني وجدته لا يستحق الذكر بالنسبة إلى ما قد فعلته أنت فقد كدت تترك الرجل يقضي عليك في حين أن الضربة كانت لك لا له. وهو أغرب ما رأيته منك".

فأجاب إبراهيم: "أولم تقل لي أن للألغاز لذتها. فهل ابتدأت تشعر بها كما أشعر أنا بها الآن ؟".

قبل أن يتمكن رشيد من الإجابة فتح الباب ودخلت منه القروية الراقصة واقتربت ببطء من سريري الجريحين ووقفت عند مضجع إبراهيم. وكان إبراهيم ينظر إليها ساكنا مندهش، لأنه لم يكن ينتظر مجيئها. فنظرت في عينيه وقالت بصوت خافت: "قد رأيت وفهمت... كيف جرحك ؟".

"إنه بالغ ولكنه ليس خطرا" أجاب إبراهيم وهو لا يزال ينظر في عينيها كأنه يرى فيهما لغزا يريد أن يستجلبه.

"أشكرك وأتمنى لك شفاء سريعا" قالت ذلك وتحولت إلى رشيد وسألته "وأنت أيها السيد كيف جراحك ؟"

"لا أظن أنها ذات بال شكرا لك"

"شفاك الله عاجلا" ثم نظرت إلى إبراهيم طويلا وعادت أدراجها مسرعة فشيعها الاثنان بأنظارهما إلى أن توارت وراء الباب ولم يعودا ينبسان ببنت شفة. بعد قليل كان رشيد قد نام، أما إبراهيم فأصيب بأرق شديد وهواجس منعته من النوم. فاستلقى وأطلق فكره في مجال التصورات وكانت بين حين وآخر يستعيد ما مر به في الغشية ويسأل نفسه: "أما كان علي أن أضربه لينال جزاءه؟ ولو فعلت ذلك فبأي عينين كانت تنظر إلي الفتاة ؟" وطال به الأمر حتى نبا جنبه عن الفراش فنهض وخرج من الغرفة ومشى الهويناء في الرواق المؤدي إلى غرفة الطعام وهو لا يدري إلى أين يذهب حتى إذا بلغها أراد أن يعود ليصعد إلى السطح. وكان إلى جانب باب قاعة الطعام مربع منكشف أتخذه بعض القرويين محلا لهم وكان منارا بقنديل ضئيل النور فاقترب إبراهيم من ذلك المربع وجعل يتأمل النيام وأكثرهم من النساء والفتيات ولا فرش تحتهم سوى بسط وأغطيتهم شراشف خفيفة، ونظر تحت ضوء القنديل رأس فتاة تدلى منه شعرا مسود ستر بعض وجهها الأسيل وعنقها الجيداء، وللحال عرف الراقصة القروية وكانت نائمة بين أترابها فخفق فؤاده لهذه المفاجئة وتقدم من حافة المربع المرتفعة وقعد عليه يتأمل وجه الفتاة وعينيها الساحرتين فتململت الفتاة تحت نظره ولكنها لم تستيقظ لأن النوم كان مثقلها.

وبقي إبراهيم في مكانه ساهرا يكلأ الفتاة ويسامر نجواه حتى انقطعت ضوضاء القوم في الخارج وهدأت الرجل. وفيما هو كذلك لاحظ أشباحا تقترب نحوه ثم تعود أدراجها وبدا له أن لهذه الأشباح قصدا وإنه يرى بينها قامة جرجس وطريقة خطوه فما برح مكانه حتى طلع الفجر وقامت الراهبات إلى صلواتهن .

في ذلك الصباح برحت الراقصة وزمرة من رفيقاتها الدير عائدة إلى قريتها وغادرا إبراهيم ورشيد صيدنايا إلى دمشق حيث أسعفا بالعلاج ورجعا بعد ذلك إلى بلدتهما في لبنان وبعد مدة قصيرة شفيت جراحهما شفاء تاماً.

منذ ذلك الحادث طرأ على حياة إبراهيم تغير كبير لم يخف على أحد من الذين كانت لهم به صلة، فتبدلت أطواره من النشاط والانشراح إلى الفتور والتأمل وأنقطع عن التحدث إلى رفقائ، كما كان يفعل من قبل، وصار يفضل الصمت وأخذت علائم الكآبة تظهر على محياه. فلاحظ أصحابه ذلك منه وعبثا حاولوا أن يعيدوه إلى سابق عهده، وأنتقل رشيد إلى بيروت لمتابعة دروسه فلم يعد إبراهيم يراه وظل وحده في البلدة يستعيد

حوادث صيدنايا ويحاول أن يستجلي غوامضها. ثم بدء يشعر بسأم مما هو فيه فجرب أن يصرف صيدنايا عن فكره ولكن عبثا. ففي الشتاء في لبنان، لا يستطيع ذو العاطفة أن يبعد فكره عن التصورات لأن تساقط الثلج في الخارج وتوهج نار الموقد في الداخل والسكون الذي يشمل الطبيعة. كل هذه العوامل تطلق للفكر مجال التصور وتفتح إلى النفس طريقا للمؤثرات. فرأى أن يسلو بالمطالعة وكاد أن ينجح لولا صور كانت تنتصب أمامه فتقاطع مطالعاته أو أفكاره الأخرى وتجلب معه كل الذكريات التي أكتنفها. ألا وهي صورة الفتاة الراقصة في صيدنايا حين كانت ترقص وحين زارته بعد جرحه وزودته نظرة لم يفقه معناها في الحال ولكنه أخذ يشعر بتأثيرها أكثر فأكثر مع مرور الزمان وابتدأت معانيها تنجلي له مع تعاقب الأيام حتى صار يشعر لأول مرة في حياته بذلك الشعور السري العجيب الذي يدفع الوعل إلى الهيام على وجهه في أيام الربيع، حاكا بقرونه الجديدة سوق الأشجار وأغصانها حتى إذا التقى بوعل أخر حاله كحاله ألتحم وإياه بعركة فاصلة تشتبك فيها قرونهما اشتباكا يقضي على كلاهما بالهلاك. بل انه أبصر في الحلم وعلا عظيما وقف على قمة جبل عال وقد أعلوت قرونه إلى الجو، ثم رآه ينقض على وعل آخر عظيم مثله. فسره ذلك وأقلقه معا .

ظلت الحال بإبراهيم على هذا المنوال إلى أن حسر الثلج عن وجه الأرض وأورق الشجر ونور الزهر واكتست الأرض حلة سندسية، فلها إبراهيم قليلا بمناظر الطبيعة، فكان يخرج للتفرج كل صباح ومساء ولكنه لم يعد إلى مرحه السابق. وزال هذا الفصل وجاء الصيف وعاد رشيد إلى المدرسة الا إن الصديقين لم يجتمعا إلا نادرا إلى أن لم يبق لعيد صيدنايا سوى أيام معدودة، ففي صباح يوم جميل أقبل رشيد على إبراهيم عند الفجر ودعاه إلى النزهة، لأن له ما يريد أن يحدث به. فلبى إبراهيم الدعوة وسار الاثنان إلى إحدى الغابات البعيدة ليكون انفرادهما تاما وهناك اضطجعا تحت أشجار الصنوبر، فقال رشيد:

"هل تذكر الشاب الذي بارزناه في صيدنايا في العام الماضي ؟"

"أذكر"

"كنت وعدتك بأن أحدثك في الأمر الذي دعاني إلى مبارزة ذلك الشاب وقد رأيت أن أفي بوعدي ألان: أنت لا بد تذكر الفتاة التي دخلت إلى غرفتنا ونحن جريحان وتفقدت حالنا" فخفق قلب إبراهيم خفقانا شديدا ولكنه ظل صامتا ينتظر تتمة حديث صديقه الذي تابع "اعلم ان هذه الفتاة رصيفة التلمذة وكانت تأتي كل سنة إلى مدرسة البنات القومية في بيروت، وذلك الشاب الذي بارزته من بلدتها ومن عائلة لها نفوذ كبير فيها وأظنك لم تنس إنه يدعى جرجس. ففي ذات يوم جاء جرجس إلى بيروت وذهب إلى مدرسة البنات حيث قابل الفتاة بحجة إنه يحمل إليها كتابا من أبيها. وفي

اليوم التالي قام بزيارة أخرى للفتاة، وكنت أنا هناك في زيارة لنسيبة لي هي صديقة حميمة للفتاة فجرى له معها حديث حاد انتهى بأن الشاب حاول اختطافها فأسرعت وحالت بينه وبين تنفيذ ما عقد العزيمة عليه. فحقد علي جرجس منذ ذلك اليوم وصار كلما رآني تهددني وتوعدني إلى أن كان ذات يوم اتفقنا فيه على المبارزة فاقترحت أن يكون ذلك في دير صيد نايا فقبل وهكذا كان كما تعلم . أما الفتاة فلم تكن تعلم شيئا من أمري ولكني وقفت من نسيبتي على الكثير من أمرها. فعلمت أن الفتاة تدعى نجلا وإنها مضطرة إلى مجاملة جرجس لأن أمه كانت قد اعتنت بها في صغرها بعد وفاة أمها وهي كانت ترجو منها أن تفعل ذلك من أجلها. والظاهر أن أم جرجس كانت تأمل أن تولد هذه المجاملة حبا ينتهي بزواج الاثنين لأنها أحبت صفات نجلا وأخلاقها وكانت الفتاة تحب الأم وتفعل ما يرضيها ولكن البون الشاسع بين نفسها ونفس جرجس يجعل مبادلتها إياه الحب أمرا مستحيلا. وعلمت أيضا أن أم نجلا كانت قد نذرت عن أبنها زيارتين لدير صيدنايا وأن الابنة تريد أن توفي نذر أمها وهو ما جعلني أقترح على جرجس أن تكون المبارزة هناك لأني كنت موقنا أنه سيتبعها إلى هناك. ولقد ماتت أم جرجس منذ بضعة أشهر وزال ما كان يدعو نجلا إلى مجاملة ابنها فكتبت إلى صديقتها نسيبتي تقول أن جرجس يلاحقها الآن ملاحقة شديدة تتألم منها وذكرت لها في آخر الكتاب إنها ذاهبة إلى صيدنايا في عيد العذراء لكي تقوم بالزيارة الثانية من أجل أمها، ويقيني أن جرجس سيتبعها إلى هناك هذه المرة كما في المرة السابقة ويحاول اختطافها هناك لأنه قد لا يجد فرصة أوفق من هذه للقيام بذلك".

عند هذا الحد انتهى حديث رشيد. أما إبراهيم فأنه كان يصغي إلى الحديث المتقدم بصمت وإمعان، ثم إنه استرسل في تأملات عميقة واستغرق فيها استغراقا لم يعد يعي معه على شيء، فقام رشيد وانصرف على مهل دون أن ينتبه إبراهيم إلى انصرافه، أخيرا أنتبه ووجد نفسه وحيدا فتعجب من حاله ونهض وعاد إلى البيت وقد نسي كل القصة التي حدثه بها رشيد ولكن أمرا واحدا رسخ في ذهنه ورسا رسوا الجبال فلم يعد شيء في العالم يتمكن من زحزحته: نجلا – صيدنايا ؟.

في تلك الليلة حلم إبراهيم كثيرا. ومرة أخرى أبصر في حلمه وعلا عظيما على قمة جبل مرتفع رافعا رأسه مطاولا بقرونه السحاب. وحدق إبراهيم في قرونه فوجدها محدودة كرؤوس الحراب، ثم نظر إلى عينيه فوجدهما ترسلان أشعة تشبه الأشعة التي ترسلها الشمس من خلال الغيوم فهي مستقيمة وحادة وكان منظره وهو يتنشق الهواء بلهفة، لعله يجد فيه رائحة مخصوصة يرتاح إليها، منظراً رائعا يأخذ بمجامع القلب. أخيرا رآه يتنشق الهواء بسرعة بمنخريه اللذين كانا يهتزان للشم ويحول رأسه نحو

جهة معلومة وينطلق كالسهم! فتململ إبراهيم في فراشه واستيقظ وإذا الفجر قد لاح. ولكنه لم ينهض حالا بل ظل مستلقيا يتأمل في حلمه والوعل العظيم الذي رآه.

ظل إبراهيم منفردا خاليا بنفسه، متحاشيا الاجتماع بأي كان من أصدقائه ومعارفه كل الأيام القليلة الباقية لمجيء عيد سيدة صيدنايا. وكان صامتا هادئا وفي هدوئه دلائل انصباب الفكر على مسألة معينة هامة. كان ذلك الهدوء أشبه شيء بستار المسرح المسدل الذي يدل على الاستعدادات المتخذة وراءه. فبعث تصرفه هذا على استغراب معارفه لأمره استغرابا شديدا، فمن جميع تصرفاته الغريبة لم يستغربوا أكثر من تصرفه الجديد الذي وقفوا حياله حيارى لا يدرون ما يبدون ولا ما يعيدو. وهم الذين كانوا يعدون أنفسهم صحبه وتلاميذه ويدافعون عن كل تصرفاته السابقة ويردون التهم التي كانت جماعة يحاولون إلصاقها به لمجرد إنهم لم يكونوا يستطيعون فهم أطواره وشذوذه عن أساليب تفكيرهم وطرائق فهمهم وابتدأ ضعاف الثقة منهم يشكون في مصير هذا البطل الذي كان آية في القوة والبطش ومثالا للشجاعة والاقدام وقدوة صالحة في الاعتماد على النفس، واخذ بعضهم يتكهن بأفول نجمه وتداعي بنائه الفخم فوقع عند الفريق الذي ظل يوده ويحترمه ويؤمن به واقعا أثار أسفهم الشديد وكاد يؤدي إلى الشقاق بينهم وبين أولئك المتكهنين .

وقع عيد سيدة صيدنايا هده المرة في يوم احد، فلما كان الصباح استيقظ إبراهيم باكرا ونهض إلى تمريناته وحمامه البارد، وكان نشيطا في قوته رائق النفس، مرتاح البال. ثم بادر إلى لوازم سفره فجمعها في حقيبة يدوية صغيرة وودع أهل بيته بعبارات مقتضبة وتوجه إلى صديق له عنده سيارة وقال له: "هل نسافر معا يا أنيس".

"ماذا؟ هذا أنت يا إبراهيم ؟ وإلى أين نسافر؟"

"إلى صيد نايا، فإن لي نذرا يجب علي أن أوفيه هناك في هذا العيد".

فاكتفى أنيس بهذا الجواب لأنه كان يعرف مزاج إبراهيم الذي لم يكن يطيق كثرة الأسئلة والكلام في مهماته ومشاريعه فبادر إلى إعداد سيارته وبعد نصف ساعة خرجا بها وحدهما ولم يعلم أمرهما أحدا في البلدة. وفي طريقهما عرجا إلى دمشق حيث تغذيا معا وشاهدا أسواقها القديمة ثم تابعا مسيرهما إلى صيدنايا فبلغاها عند العصر وكان الدير قد أمتلأ بالخلق وسيارات القادمين لا تزال تتوافد بكثرة. ولاحظ إبراهيم أن الإقبال على العيد هذه السنة يربي على الإقبال في السنة الماضية فطاف وصديقه نواحي البلدة ودخلا الدير وطافا به حتى المساء.

عندما دخل إبراهيم الدير وجده غاصا بالخلق كما في المرة الأولى والقوم في هرج ومرج عظيمين. ففي ساحاته وعلى سطوحه اجتمعت جماهير

غفيرة وكانت الدبكة في الساحات آخذة مجراها كالسابق: حلقات للرجال وحلقات للنساء والجماعات المحيطة بها تصفق وتصيح مثيرة الحماس في الراقصين. فلما شاهد إبراهيم هذه الحلقات خفق قلبه خفقانا شديدا وثارت في نفسه عاصفة من الانفعال لم تلبث أن تلاشت وعاد إلى هدوءه ورباطة جأشه، فجعل يجيل بنظره في الناس بسرعة ولكنه لم يجد من يستقر عليه وبينما هو كذلك رأته بعض النساء وجعلن يتهامسن قائلات :"انظرن! هذا هو الرجل الذي جازته القديسة أم بزاز في السنة الفائتة بأن جرح من خصمه في الباز بالحكم" وبأسرع من البرق تنقلت هذه العبارة وتجاوزت النساء إلى الرجال. أما إبراهيم فأنه لم يسمع شيئا لما كان أعاره اهتماما فقد كان له من شواغل نفسه ما يغنيه عن شواغل الناس .

بعد أن أجال إبراهيم نظره في تلك الجموع طويلا دون أن يحظي بما يستوقفه ترك مكانه وشرع يتنقل من مكان إلى مكان على غير هدى من أمره وأنيس يرافقه صامتا. متعجبا حتى أشرفت الشمس على المغيب. وكان أنيس قد لاحظ قلق إبراهيم الداخلي وشرود فكره فقرر أن يبقى في الساحة الكبرى ينتظره ويراقب ما يجري، وتابع إبراهيم تجواله دون أن ينتبه إلى تخلف صديقه عنه. ثم إنه عاد فمرّ في الساحة الكبرى حيث كان أنيس دون أن يراه أو يفتقده، وجاوزها إلى ممر يؤدي إلى جناح الدير الأيسر من المدخل فمشي فيه إلى آخره. وإذا هناك مدخل إلى غرفة صغيرة فدخل فيه ووجد نفسه في غرفة صغيرة خاوية، وفي مؤخرها باب يؤدي إلى غرفة أخرى فولج هذا الباب ووقف قريباً منه. لأن الغرفة كانت مظلمة لمن يأتي من الخارج فهي أشبه شيء بكهف عميق ولا ينفذ إليها نور النهار إلا من كوة صغيرة في أعلاها لا تطل على الفضاء الرحب بل على حائط من حيطان الدير.

بعد قليل ابتدأ إبراهيم يتبين ما في هذه الغرفة على نور شمعات قليلة متفرقة في جوانبها فرأى أن جدرانها مبطنة بصور القديسين فتزحزح من موقفه وأخذ يطوف المكان ويدقق النظر في الأطر المعلقة حتى بلغ صورة كبيرة قائمة في وسط الغرفة مضاءة أمامها شمعتان أكبر قليلا من بقية الشموع. فلم يشك في أن الصورة هي صورة العذراء التي تخشى راهبات الدير أن يخرجنها من ذلك المكان المظلم ويعرضن قداستها للنور وخطر الضياع. فأقترب من إحدى الشمعتين ليتمكن من رؤية الصورة عن كثب. وما أن فعل حتى أستلفت نظره شخص امرأة كانت واقفة أمام الصورة بين الشمعتين وهي كأنها تتأملها أو تناجيها. فبهت إبراهيم لهذه المفاجأة وتعجب من إنه لم ينتبه إلى وجود إنسان أخر في هذا المكان من قبل وهم بالتراجع، ولكن المرأة كانت قد شعرت بوجوده قربها وحولت وجهها أليه لترى من هو. وكم كانت دهشته عظيمة حين تبين على نور الشمعة الضئيل التي

بينهما وجه نجلا: الراقصة القروية التي ظلت صورتها مطبوعة على مخيلته بوضوح تام حتى كأنه رآها أمس لا منذ سنة! ولم تكن دهشة الفتاة أقل من دهشته حين رأت قامته وعرفت وجهه. فوقف الاثنان ينظر كل منهما إلى الآخر نظر من هو على يقين من أن يراه حقيقة لا حلم.

لا يحاول الراوي التعبير عن العواطف التي استولت على قلب هذين الاثنين في هذه الدقيقة لأنه يعلم أن لبعض العواطف البشرية لغة لا يمكن الاستعاضة عنها بلغة النطق، وهو لا يريد إفساد الأصل بالترجمة بل يفضل متابعة سرد القصة:

"أنت هنا؟" قالت الفتاة بصوت خافت يقارب الهمس. فطرق هذا السؤال مسامع إبراهيم بشكل مخصوص فهم منه: "أعن قصد مجيئك؟"

فأجابها بصوت لا يعلو كثيرا عن صوتها ولهجة توكيدية ثابتة "نعم. أنا هنا!"

عن هذا الجواب لمعت عينا الفتاة الكسيفتان وقالت: "لقد كنت أفكر منذ هنيهة وأسأل نفسي:-هل يجيء؟"

-"هل شككت في مجيئي؟"

- "أرجو أن تحملني على الإباحة بجميع الهواجس التي انتابتني بين عيد سيدة صيدنايا الأخير وهذا اليوم".

فأخذ إبراهيم يدها بين يديه وقال: "لقد جئت وفي نيتي أننا إذا التقينا فلا فراق، فما هي نيتك أنت؟"

-"أنت الشخص الوحيد الذي تمنيت من كل قلبي أن يبقى إلى جانبي دائما، فقد أرعبني الكثيرون وملأوا نفسي اشمئزازا وخوفا!".

فضمها إبراهيم إلى صدره بلهفة وطبع على شفتيها قبلة حارة وأجابها: "إننا لن نفترق ولن يخيفوك بعد الآن!" وخرج وإياها من الحجرة وهو يطوقها بيمينه القوية.

كان الليل قد غشي تلك النواحي ولكن القمر كان قد طلع وأضاء نوره هذه البقعة. فاجتاز إبراهيم ونجلا الممر المؤدي إلى الساحة الكبرى وهما على الحالة التي كانا عليها حين خرجا من غرفة العذراء ولم يلتفتا إلى أحد من الأشخاص الذين كانوا واقفين أو مارين فيه. أما هؤلاء فأنهم حالما رأوهما شغلوا بهما عما كانوا فيه وجعلوا يتبعونهما بأعينهم مشرئبين الأعناق نحوهما، مستغربين مظهرهما الذي لم يكونوا قد رأوا مثله من قبل. فلما بلغا الساحة وجدا ما لم يكن في حسبانهما: ففي وسطها وقف جرجس البطل المبارز في السنة الماضية نفسه وهو يحمل بيده اليمنى سيفا مسلطا وباليسرى ترسا وذراعاه متقاطعان على صدره ومن حوله لفيف من الرجال هم مزيج من أهل القرى وأهل المدن وأمامه على الأرض سيف وترس آخران كان الرجال المحيطون به يتشوقون ليروا من ذا الذي

سيلتقطهما. فلما رأى إبراهيم هذا المشهد ضم الفتاة إلى صدره ووقف يحدق إلى جرجس ولفيفه تحديق النسر. حينئذ أدرك الرجال والجمع لذي ورائهم إن شيئا غير اعتيادي سيأخذ مجراه، وكما بسحر ساحر انقلبت سحن الرجال الذين يحفون بجرجس من الهيئة الهزلية التي كانت عليها إلى هيئة جدية جعلت وجوههم تشبه تماثيل الشبه.

ولم يشأ إبراهيم أن يبقى واقفا في مكانه فمشى برفقته بضع خطوات محاولا أن يتابع سيره فاعترضه جرجس وهو لا يزال على الشكل المتقدم وصفه وقال له: "إن ذلك السيف الذي تراه على الأرض ينتظرك لإنهاء البراز الذي بدأناه السنة الماضية في مثل هذا اليوم"

ما كاد جرجس ينتهي من عباراته هذه حتى أحس إبراهيم أن نجلا ارتعشت مع أن ذراعه اليمنى مطوقتها، فالتفت إلى من حوله وإذا أنيس واقف إلى جانبه وفي يده عصاه الكبيرة التي لا تفارقه فقال له: "أعطني عصاك وخذ هذه الفتاة إلى السيارة وأنا أكون هناك بعد دقيقة" وتناول العصا وتقدم أنيس من الفتاة ليقودها ولكنها أبت الذهاب وقالت لإبراهيم أما أن نبقى معا وأما أن نذهب معا" فنظر إليها إبراهيم بحنان وقال لأنيس: "إذن أبقى إلى جانبها إلى أن أعود"، ثم تحول إلى جرجس وقال له:"لا حاجة إلى ذاك السيف فأن هذه العصا تكفي لتأديبك فخذ مكانك سريعا!"

فأراد جرجس أن يمتنع ولكن إبراهيم أمسكه من عضده وضغط عليه بأصابعه الفولاذية وهزه بشدة وقال له:"إذا لم تقبل اضطررت إلى ضربك كما يضربون الأولاد الصغار الطائشون، فأدرك جرجس من قوة خصمه ولهجته الثابتة إن لامناص له من الإذعان فألتفت إلى رفاقه وقال لهم :"اشهدوا إني بريء مما سيحدث"، ثم تراجع إلى متوسط الساحة وتقدم إبراهيم أيضا بضع خطوات وقبض على عصاه من طرفها الدقيق وأدار رأسها الضخم في الهواء.

أخذ جرجس أولا في اللعب بسيفه وضربه على ترسه وما كاد ينتهي من ذلك ويتحول إلى المجاولة، حتى أقبل إبراهيم نحوه بخفة الأسد وثباته وجاوله مرة واحدة فقط أطبق بعدها عليه مديرا عصاه بسرعة ومهارة عظيمتين، ثم فر منه وعاد فكر عليه كرة لم يكن ذاك يتوقعها وباغته مباغتة حبلته حتى لم يعد يحسن الدفاع وحانت الفرصة فأهوى عليه بضربة شديدة أصابته في قمة رأسه وألقته على الأرض صريعا. وبينما الناس في دهشة عظيمة مما حدث ذهب إبراهيم إلى رفيقه وأحاط نجلا بذراعه اليمنى كما في الأول واجتاز بها الممر المؤدي إلى الخارج وتبعهما أنيس يحمل عصاه التي استعادها.

في هذه الأثناء كان رجال جرجس قد تقلبوا على دهشتهم فخرج أربعة منهم في أثر إبراهيم، فتصدى أنيس بعصاه لأثنين منهم وكر إبراهيم

على الاثنين الآخرين فأمسكهما من عنقيهما ودق رأسيهما الواحد بالأخر دقا أفقدهما الصواب وألقاهم برفق على الأرض. فلما رأى الاثنان الباقيان ما حل برفيقيهما فرا هاربين ودخلا الدير وهما يقولان:"ان الشيطان يحميه! "فأجابتهم إحدى النساء المشاهدات " بل العذراء تحميه!" وسمع جوابها بعض القرويين فعدوا هذا الحادث من عجائب سيدة صيدنايا الكلية القداسة وهم لايزالون يرونه من هذا القبيل.

أما إبراهيم ونجلا وأنيس فتابعوا سيرهم إلى السيارة وركبوها وساق أنيس في طريق قرية ن... حيث تقطن نجلا، فبلغوها بعد سير ساعتين تقريبا وترجلوا أمام بيت قروي معتدل وطرقت نجلا الباب وبعد هنيهة فتح الباب ودخلوا البيت ولم يكن فيه احد سوى والد نجلا الشيخ.

في صباح اليوم التالي جرى عرس بسيط جدا جمع الفرح والرضا ولم يجمع شيئا من الضوضاء. وأصبح إبراهيم ونجلا زوجين.

لا يستطيع من لم يشهد الحادث بنفسه أن يتصور مبلغ دهشة أهل بيت إبراهيم عندما عاد مصطحبا نجلا وقدمها إليهم بصفة كونها امرأته، ولا شدة وقع ذلك عند معارفه والذين كانوا يعرفون عنه، خلا رشيد فانه قدر الحادث وأخذ ينتظره منذ علم إن إبراهيم برح البلدة يوم العيد. وأقبل كثيرون يريدون تهنئته ولكنه كان حالما يشعر بقدوم أحد لزيارته يأخذ نجلا ويخرج وإياها من الباب الخلفي ويذهب الاثنان يتنزهان في الغابات. فأدرك أهل البلدة الحيلة وأخذوا يرصدونهما يكادون يذوبون شوقا إلى رؤية الفتاة التي أصبحت امرأته. ولم يكن بينهم من لم يتوقع أن يراها بدينة رجراجة. فلما أتيح لهم أن يلحظوها ووجدوها فتاة ضامرة الحشى، لطيفة الجوانح بهتوا وانصرفوا وهم يشكون فيما رأوا.

أخيرا أجمع الناس الذين يجعلون أنفسهم دائما المثل الطبيعية للأطوار البشرية على أن الحادث أمر غير طبيعي. ولم يعدم الشبان الذين كانوا يحسدون إبراهيم والشابات اللواتي كان يغيظهن بتصرفه السابق شيئا جديدا يضيفونه إلى اختلافاتهم الماضية.

أما إبراهيم ونجلا فلا يزالان يعيشان سعيدين جدا، وكلما عاد إبراهيم إلى نفسه تذكر صديقه رشيدا وتلك الحكاية التي قصها عليه في الغابة والوعل العظيم الذي أبصره في الحلم. أما صور الجمال التي كانت أفكاره السابقة تحوم حولها فقد نسيها بتاتا.